من تراب الطريق (٤٩٠) بيع الذات ! (*)

أقض مضاجع الوطن ، وأضنى مشاعر المواطنين ، الوقائع التى تفجرت وانكشفت فيها تجارة بيع الأطفال ، وهى نذير شؤم بالغ الخطر .. على أن هناك تجارة أخرى لا يلتفت إليها أحد ، مع أنها لا تقل المصيبة فيها عن مصائب بيع الأطفال ، هى تجارة «الذات» أى بيع «النفس».. وبيع النفس هو تجارة قديمة جديدة ومتطورة ، تنصرف بضاعتها المعروضة أو المبيعة ، إلى الفكر والموقف والرأى .. وقد راجت هذه التجارة وتفشت وصار لها رواد وأتباع وسماسرة وأشياع ، يبيعون الفكر والموقف والرأى بأبخس الأثمان فى سوق النخاسة !!

لقد أدت هذه الظاهرة إلى ما أطلقت عليه فى مقال بالأهالى ١٨ / ١ / ٢٠٠٦ : « انبطاح الرجال» .. وهو تعبير مجازى يومئ إلى النفاق والرياء والتزلف ببيع الرأى والموقف ، بإبداء المطلوب المرضى لا الواجب وإن لم يرض ! صاحب الرأى صاحب عقيدة لا يفرط ولا يداهن فيها ، ولا يبدى سوى ما يعتقد أنه الحق والصواب الذى يؤمن به ويعتنقه ويدافع عنه مهما كلفه ذلك من عناء أو عرضه لمشكلات وأخطار .. لا يساير ولا يماشى ولا يرائى ولا يتزلف ، فذلك خداع وغش وتدليس آفته وأخطاره أفدح من تطفيف الميزان .. فالتطفيف فى الموازين فعل مادى فى متناول الاكتشاف والضبط ، أما

(*) المال ٢٩/ ٩/ ٢٠١٠

المخاتلة فى الرأى فهى مخاتلة معنوية مغلفة دائما بادعاء الأمانة والمصداقية ، وقد تنطلى على المتلقين .. سيما إذا كان المنطلى من ذوى الكفاءة أو الحيثية أو المكانة أو الألقاب ، أو كان يحمل فى السالف تاريخاً ناصعاً قبل أن تزحف عليه عوامل الانبطاح والتزلف والرياء والنفاق !!

مؤدى هذه الآفة الخطيرة ، أن بوصلة الوطن تتعرض للاختلال الشديد فى تشخيص المشاكل ودراسة القضايا وطرح الحلول .. الدواء يتحول من ترياق إلى سم زعاف إذا أخطأت أو ضلت أو ضُللت بوصلة التشخيص .. وقد احتاط العلم لاحتمالات قصور عرض المريض لمظاهر ما يعانيه ، بالأجهزة التقنية التعويضية التى ترصد بالأشعة بمختلف أنواعها التى لا تكف عن الابتداع والتطور ، والتحليلات المختلفة للدم والبول ونواتج التنفس وطاردات البلغم حتى تكتمل الصورة المرضية تماما للطبيب فلا يخطئ التشخيص ، ومن ثم لا يخطئ العلاج ووصف الدواء !

كارثة كبرى على الوطن ، أن تتفشى هذه الظاهرة المرضية فى النخبة التى تمثل عصب وعقل وفكر الوطن .. مؤداها أن تعيش الإدارة والناس فى وهم كبير ، وأن يروا حالا غير الحال ، وحلولا غير الحلول !!

ظنى أن معظم البلاء الذى أصاب ويصيب بلادنا يأتى من المنبطحين نفاقاً ورياءً وطلباً للرضا والزلفى ، واستهدافا لأغراض ومصالح قصيرة لا تدرك ولا تعى أن المكاسب الصغيرة ربما تحولت فى نهاية المطاف إلى خسائر فادحة !

كان سيد درويش يغنى من نحو قرن من الزمان من كلمات بديع خيرى :

علشان ما نعلى ونعلى ونعلى لازم نطاطى نطاطى نطاطى!

من الغريب أن بيع «الذات» قد صار تجارة شائعة بين بعض النخب ، وبين ذوى المال واليسار ، وبعضهم لديه الأصل والحسب والنسب ، ومنهم من يتمتع بعلو المنزلة والمكانة فى عيون الناس ، ولكنهم يهجرون الوقار واحترام الذات حين يعرضون بضاعتهم المردودة إلى «ذواتهم» للبيع فى سوق النخاسة .. فيزينون الآراء المغلوطة ، ويراءون بالحلول المرضية وإن أدت فى النهاية إلى الجحيم ، ولا يبالون فى بيع «ذواتهم» أن يرخصوا فى عيون الناس ، تراهم منتفخى الأوداج ، يتصدرون المواكب فى الاحتفالات وفى الجنازات ، يختالون كالطواويس ، يظن الواحد أنه قد امتلك الدنيا بقبضة يده ، ويقودهم منطق «النعامة» إلى العماء الضرير ، فلا يرون أن الكل يرى رأس النعامة التى أخفتها فى الرمال ، وأن المفقود الوحيد هو حاسة «الرؤية» و«النظر» و«التفطن» التى نسفتها النعامة حين غرزت رأسها ودفنتها بداخل الرمال !

ومن اللافت أن «تجارة الذات».. قد صار لها سماسرة ومحرضون ، يخصص بعضهم «ركنا» دائماً فى الصفحة الأولى لجريدة مفترض أنها قومية ، أى ملك للوطن والمواطنين ، ليبدى الضيف فى هذا «الركن» وهو صاحب حيثية جامعية أو وظيفية أو نخبوية أن مصر لا تحتاج إلى كذا وكيت ، وإنما إلى كيت وكذا ، ويلقى بحكمته البتراء مشيراً على الناس بما يجب أن يكون ، ولا يدرى المحرِّض والمحرَّض أن القراء يضحكون ساخرين بداخل أو خارج أكمامهم من هذا النفاق الرخيص ، والمغالطة الممجوجة ، والتى لا تنطلى حتى على ملقيها الذى يعلم هو ومحرضه أن ما يلقى إلى الناس كذب ونفاق مفضوح !!

لقد تسللت هذه الظاهرة المرضية إلى دوائر صنع القرار ، وإلى دوائر صناعة التشريع ، وقد أدى ذلك إلى أحكام متوالية لا حصر لها قضت فيها المحكمة الدستورية بعدم دستورية قوانين كانت حصاد هذا النظر الضرير ، وأحكام متعددة لمحاكم مجلس الدولة ببطلان قرارات وتعاقدات كان انفلاتها وفسادها هو الحصاد الحتمى لبيع الذات .. بما استتبعه من ضياع الشفافية وإهدار القوانين والمصالح الوطنية سواء بسواء !

مؤسف حتى النخاع أن تصير «الذات» سلعة تباع وتشترى فى سوق النخاسة بأبخس الأثمان !!